المحاضرة الثامنة:

شعر الثورة الجزائري

إن الشعر الإصلاحي كان إرهاصا للشعر السياسي، لأنه كان وخزا للضمير النائم على الذل والهوان، يهمس بالنضال حينا ويصرخ بالجهاد حينا آخر، إلى تبلورت القصيدة وغدت تتحدث صراحة عن تحرير البـــلاد، فلما جـــاءت ثورة نوفمبر ارتمى في أحضانها الشعب بكل ما لديه، وكـرس لـهـا جهوده، وكان من الطبيعي أن يتحدث شعراؤنا عن هذه الليلة، وينوهوا بأول نوفمبر رمز الثورة.

وهذه قصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر مفدي زكريا يتحدث فيها عن هذه الليلة التي دعاها التاريخ، فاستجابت له، فقد سطع فيها نجم الحرية، وانكشف فيها الحجاب، وتجلى الليل ضاحك القسمات، وأشرقت كواكبه مضيئة ملتهبة، ليلة أشعل فتية الجزائر نار الثورة، ليحرروا وطنهم، يقول:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا "نوفمبر" هل وفيت لنا النصابا

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا

تبارك ليلك الميمون نجما وجل جلاله هتك الحجابا

وهزت جبهة التحرير شعبا فهب الشعب ينصب انصبابا

الشاعر صالح الخزفي هو الآخر هزته ثورة أول نوفمبر، فقال فيها قصيدة بعنوان (نوفمبر)، مبايعا هذا الشهر، لأنه شهر البطولات والمواقف الخالدة، ففيه بدأ فجر الحرية، ومنه انقدح زناد الثورة، فتفجر بركانها، وفيه انطلقت الرصاصة الأولى التي اهتزت لها أرض الجزائر من أقصاها إلى أقصاها، شهر سـال دم الأحرار ليروي أرض الوطن، وينعش ثراها الذي أجدب، يقول:

بايعت بين الشهور نوفمبرا ورفعت منه لصوت شعبي منبرا

شهر المواقف والبطولة قف بنا في مسمع الندى وسجل الورى

فلانت مطلع فجرنا وزناد بر كان أثرت كمينه فتفجرا

دوت بمطلعك الخصيب رصاصة فاهتزت البيضاء وانتشت الدرا

واندلع فجرك عن مصب من دم الـ أحرار فانتعش الجديب وأزهرا

وهناك شاعر آخر كان له فضل السبق في مشاركة الشعب أحزانه وآلامه وتحدث عن مشكلاته وما تعرض له من محن على أيدي الجلادين الفرنسيين هذا الشاعر هو أحمد الباتني، فقد نشر قصيدة بعنوان "مشبوه" التي جاءت لتسجل حدثا هاما في حياة الشعب الجزائري، وتسجل لنا مرحلة هامة من مراحل الأحداث التي مر بها شعبنا وتعطينا صورة صادقة لما كان يتعرض له، يقول الشاعر:

وامضوا لما في البيت فانتبهوه قالوا خذوه فإنه مشبوه

ما ناله بالكدح قد سلبوه وإذا تأبى للردى وهبوه

لـــن يـرحـمـوه فـإنـــه مشبـوه

ويمضي الشاعر في هذه النغمة المتألمة، يتحدث عن هذا المشبوه الذي قيدوه، وساقوه إلى حيث يلاقي صنوف العذاب، وكيف بكى أمه وأبوه، وبنوه الذين لا يعرفون معنى المشبوه، فيلوذون بأمهم يسألونها عن كل هذا:

سألوا " بذل اليتيم" أماه لم ساروا به يا أم مشدود الوثاق

قالت وعين القلب تبكي دما ومضرج الخدين صوّحه الفراق

قـالـت: بـني ...أبوكـمـو مشبوه

ومن الإنصاف أن نتعرف بأن الشاعر في هذه القصيدة التي لم نأتي بها كاملة، قد بلغ الروعة، ليس فقط لأنه عبر عن إحساسه اتجاه قضية هامة، وتجاه شعبه الذي تعرض للإرهاب في هذه الفترة، وإنما لأن القصيدة تزخر بشتى المعاني والتعابير الملونة الأخاذة، فهذه البساطة في التعبير والحشود الكثيرة من الصور والتعابير. وهذه النغمة الجياشة المخلصة، والجو الشاعري الذي يلف القصيدة كلها، كل هذه الألوان والصور تجعلك تحسن فعلا بأنك تعيش مع هذا الشعب، وتشعر بألمه، ومن ثم تجعل القصيدة في القمة من الأداء الممتاز، وكان من الجيد لو أن هذا الشاعر لم ينقطع عن قول مثل هذه القصيدة، التي تعتبر من درر شعرنا الحديث، ولكن الشاعر المقل. لا يقول الشعر إلا نادرا ولكنه إذا قال كان شاعرا في قوله وصادقا في إحساسه وعواطفه.

والملاحظ على شعر هذه الفترة أنه عرف تقدما محسوسا من حيث الكم، حيث كثـر عدد الشعراء، وكثرة أسباب نمو الشعر، ومن أكبر الدواعي لهذا النمو، الثورة التي عمت الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وأما من جهة الكيف فقد تطور ونفض غبار العصور وقيود الجمود، ولكن لم يمدح ولم يـرث إلا من قدم خدمات جليلة للبلاد أو للأمة العربية والإنسانية، وتغزل الشاعر لكنه ربط حله وعواطفه بحب وعواطـــف الشعــب، ولم يبق الشعــر مدحا متكلفا متكسبا ولا الرثاء مدفوعا مرائيــا ولا النسيب كاذبا، وأدخل الفلسفة في شعره وربط بينها وبين حياته، فجاء شعره صادقا يكشف أعماق نفسه ويترجم نزعاته وأحلامه وآلامه وثرواته.